المبحث الأول

تاريخ النقد الثقافي

(قراءة في المصطلح)

يعد النقد الثقافي نتاجاً منهجياً مهماً وإشكالياً من المناهج النقدية الحديثة، ويمثل في هذا الإطار تحولاً نوعياً كبيراً في فضاء الرؤية المنهجية النقدية التي تتصدى للنصوص والظواهر، ونتيجة طبيعية وضرورية للتغيرات المعرفية والفكرية والثقافية الكبرى التي طرأت على فعاليات النظرية النقدية والإجراء النقدي، وتحول الرؤية النقدية في الأعم الأغلب من المناهج النقدية التقليدية (السياقية) ـ التي كانت ترى في النص الأدبي الإبداعي أداة لتفريغ هموم المبدع وتصوراته ورؤاه في النص بتجلياته الحضارية والنفسية والاجتماعية والتاريخية ـ، إلى المناهج البنيوية التي تعدّ النص بنية لغوية مكتفية بذاتها ومغلقة على ذاتها، وعلى أثرها أعلن البنيويون ما اصطلحوا عليه بـ(موت المؤلف)، ومن ثم تفرعت بعد ذلك البنيوية إلى بنيويات وتعددت وتنوعت على نحو غزير لافت، ومن ثم ـ وفي سياق التطور المنهجي ذاته ـ ظهرت مناهج القراءة والتلقي التي تجد في (القارئ) الشريك الفعلي المنتج للنص الإبداعي في فعل القراءة.

من هنا نجد أن النقد الثقافي برؤيته المنهجية الحديثة جاء رداً طبيعياً وضرورياً على فضاء المناهج النقدية الأدبية، التي تتخذ من النص بكينونته البنيوية أداة مركزية ومحورية ونهائية، وإنّ فكّ مغاليق هذا النص والكشف عن طبقاته وجيوبه وظلاله، والتوصل بجمالياته وأساليب تعبيره الفنية الصرف، هو الغاية الأساسية للعملية النقدية النصيّة، فالناقد النصّي هنا لا يستطيع أن يرى فعالية ما للنقد خارج إطار هذا النص، إذ تنغلق قراءته على العالم الداخلي المحوري للنص.

ويبدو أن مقولة ديريدا البنيوية الشهيرة (لا شي خارج النص) تمثل تحدياً منهجياً مهماً للنقد الثقافي في اشتغاله على خارج النص أيضاً، الذي يجد في النقد فعالية لا تقتصر على النص بوصفه بنية جمالية مغلقة ومستقلة بذاتها، بل يجد أن أهمية النص تكمن فما يتركه من تأثير ظاهر ومثمر في المجتمع الذي أنتجه، بوصفه أداة فاعلة تؤثر في المجتمع وتتأثر به، على النحو الذي تصنع فيه أنموذجها الخاص، فـ((كلما التفت النقد إلى أهمية العلاقة بين النص والسياق الذي ينتج فيه، والارتفاع

من كونه تقنية تنظيم إلى كونه أداة تحليل، فإنه يمكن أن يكون مفيداً في عصر العولمة))[1].

من هنا واستناداً إلى هذه الرؤية في التعاطي والحوار مع الفكر المنهجي المتطور باستمرار((انتقلت النظرية النقدية المعاصرة، وعلى فق هذا التحول، من قراءة النصوص الإبداعية إلى قراءة الأنساق الثقافية))[2]، وتبعاً لذلك فإن مهمة النقد لم تعد تقتصر على حدود النصوص المنتخبة ـ بحسب النقد الأدبي ـ، بل وسعت دائرة اهتمامها لتشمل النصوص الأخرى، التي كان ينظر إليها النقد الأدبي بوصفها نصوصاً هامشيةً وغير ضرورية ولا ترقى إلى مستوى الاهتمام النقدي من لدن النقاد.

ولا شك في أنّ هذا ((التعامل مع النص من شأنه أن يجعل هذا الجهد منتمياً إلى دائرة الثقافة والفكر... لا الأدب ونقده، ويحصر النقد في كونه مادة يمكن الاعتماد عليها في تبين فاعلية الثقافة، وملامحها وعللها، ومسارها التاريخي، وانجازها في لغة من اللغات، ومجتمع من المجتمعات))[3]. وهنا تتوسع كثيراً دائرة الفعل النقدي لتشغل مساحات إضافية من فضاء الاهتمام المجتمعي بالنصوص والظواهر الإبداعية.

يمثل النقد الثقافي على هذا الأساس امتداداً طبيعياً ومنطقياً للتطور الذي حظيت به المناهج النقدية على مرّ عصور النقد، تلك التي تحاول ـ ما وسعها ذلك ـ الكشف عن حساسية الظاهرة الأدبية النقدية بعيداً عن النص، والتأكيد على السمة الثقافية التي يتركها النص في المجتمع الذي ينتجه وتجلياتها وخصوصياتها وتمثلاتها في فضاء التلقي.

وهذا أيضاً ينقل مجال النقد من البنية النصية إلى البنية الثقافية، التي تنظر إلى النص بعده وثيقة ثقافية فـ (((التاريخانية الجديدة) و(النقد الثقافي) متأسسان على نقد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، حيث تأتي مشروعات نقدية متنوعة تستخدم أدوات النقد في مجالات أعمق وأعرض من مجرد الأدبية))[4].

---

(1) النقد العربي والعولمة، بحث في المرجعيات الثقافية، د. عبدالله ابراهيم، ثقافات، ع 2، ربيع 2002: 25 0

(2) تحولات النظرية النقدية المعاصرة مقاربة تفكيكية في ثقافة التجاوز وعولمة المفاهيم، عبد الغني بارة، مجلة فصول، ع 70، شتاء وربيع، 2007: 234.

(3) إشكالية المنهج في النقد الثقافي، صلاح رزق، مجلة علامات، ج51، م13، مارس 2004:73-74 .

(1) النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، د0عبدالله الغذامي، المركز لثقافي العربي، المغرب العربي، الدار البيضاء، ط3 2003: 14.

وتبعاً لذلك توسعت مجالات النقد الثقافي ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لتشمل جميع المجالات التي كان ينظر إليها على أنها ليست ذات قيمة جمالية نصيّة، وهذا لا يعني بحسب النقد الثقافي أنها فاقدة للقيمة الثقافية ذات التأثير العميق في مجتمع التلقي الثقافي، لذا ((يحاول المحلل الثقافي أو الناقد الثقافي إعادة قراءة هذه المفاهيم والأنساق الثقافية في ضوء السياقات الثقافية والظروف التأريخية التي انتجتها، وهذا الأمر لا يتحصل للناقد المختلف إلاَّ بفعل القراءة الفاحصة التي تكشف هذه الأنساق، مثلما تكشف دلالاتها النامية في إطار فكرة الايدولوجيا وصراع القوى الاجتماعية المختلفة))[1]، بحيث يتحول النص المنقود أو الظاهرة المنقودة إلى حاضنة ثقافية كثيفة لا يمكن تحليل محتوياتها بسهولة.

تعددت الآراء وتنوعت الأفكار، وكثر السجال والحوار والنقاش في تحديد مفهوم النقد الثقافي وطبيعته وآلياته وسبله وحدوده، وهذا عائد بطبيعة الحال لعدة أسباب منهجية منها، أن مصطلح النقد الثقافي مصطلح حديث ولم تحدد أطره المنهجية وآليات عمله بشكل واضح وحاسم ونهائي، فضلاً على أن هذا المنهج ارتبط ـ ومنذ ظهوره ـ بالثقافة، ونرى إن الثقافات القومية غير متشابهة بطبيعتها وأشكالها ونظم تكوينها وتأريخيتها، لذا نظر إلى هذا المنهج من عدة زوايا بحسب طبيعة الثقافة التي أنتجته.

فمنهم من ينظر إليه بوصفه نشاطاً معرفياً وفكرياً مشتركاً وليس مستقلاً، وهذا ما طرحه آرثر ايزابرجر في كتابه النقد الثقافي، إذ عبّر فيه عن ((أن النقد الثقافي نشاط وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته.... كما اعتقد هو مهمة متداخلة، مترابطة متجاورة متعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكاراً ومفاهيم متنوعة وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد))[2].

وهذا يؤكده محسن جاسم الموسوي الذي يراه ضمن الإطار نفسه أنه ((فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المحض من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف يتسنى للناقد الأدبي أن يخوض في (الاعتيادي) و(المبتذل) و(الوضيع) و(اليومي)))[3]، وهذه الآراء تمثل المنهج من خلال رؤية ثقافية واسعة تنظر دائماً إلى الخارج في مقاربة النصوص والظواهر، ولا تهتمّ بالداخل النصّي إلا في حدود معينة.

---

(2) جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي نموذجاً)، د.يوسف عليمات، المؤسسة العربية للنسر بيروت ـ لبنان، ط1 2005:30.

(1) النقد الثقافي، أرثر إيزابرجر، ترجمة: وفاء ابراهيم، رمضان سبطاويسي، منشورات المشروع القومي للترجمة، القاهرة ـ مصر، ط1 2001:30- 31.

(2) النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير واقعها)، د. محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط1 2005: 12 0

في حين نجد أن بعض النقاد المنضوين تحت لواء هذا المنهج والمدافعين عنه يحاولون تحديد هذا المنهج ضمن سياقات معينة، ونقله من مستوى الثقافة ذات المستويات المتعددة، وتحديده بالنص الذي يمثل أحد تلك المستويات في تحديد عمل النقد الثقافي.

فالناقد عبد الله الغذامي ـ وهو أول من دعا إلى المنهج الثقافي عربياً بوصفه بديلاً للنقد الأدبي ـ يجد أنه ((فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. من حيث دور كل منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شان النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/الجمالي))[1].

هذا التعريف المفهومي للنقد الثقافي يمثل أول تحديد مصطلحي نابع من رؤية نقدية عربية ذات خصوصية، وعلى الرغم من أهميته المنهجية والفكرية والنقدية إلا إنه يحمل مجموعة من الإشكالات المصطلحية التي تصدّى لها كثيرٌ من النقاد وساجلوا فيها الغذامي.

أول هذه الإشكالات تتمثل في أزمة تحديد المنهج بالمقروء والابتعاد عن غير المقروء، الذي يمثل أحد مستويات النقد الثقافي والمتمثل بالوسائل المرئية، التي باتت تشكل تياراً قوياً في الثقافة وتصنع ثقافة توازي ثقافة المقروء، في حين نجد بعض آرائه في كتب أخرى تتحدث عن النقد الثقافي وتتخذ من البرامج التلفزيونية طريقاً قرائياً وتحليلياً لها، إذ يرى أنّ هذه البرامج تمثل نمطاً ثقافياً اجتماعياً مهماً من أنماط الثقافة المعاصرة الموجّهة لثقافة المجتمع وتصوراته ورؤيته للأشياء.

فضلاً عن وظيفة النقد الثقافي المركزية التي ينظر إليها كونها ((نظرية في نقد المستهلك الثقافي، وليست في نقد الثقافة هكذا بإطلاق، أو مجرد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها))[2]، فهل يمكن لنا تحديد هذا المثقف قرائياً أم ماذا؟ وكيف لنا أن نأخذ جزءاً من الثقافة ما دمنا نتحدث عن مستهلك ثقافي؟ وأسئلة أخرى تظلّ عالقة في هذا المضمار.

وفي السياق نفسه نجده في تعريفه هذا يتحدث عن (النقد النصوصي العام) بكل شموليته واتساعه وتنوعه وانفتاحه، في حين لا نجد سوى الظاهرة الشعرية بتجلياتها

---

(1) النقد الثقافي، عبدالله الغذامي:83- 84. وينظر التعريف نفسه في كتاب، مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، أ.د حفناوي بعلي، منشورات دار الإختلاف، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2007: 52 0

(1) النقد الثقافي، عبدالله الغذامي: 81.

المتنوعة في تطبيقاته النقدية الثقافية، وربما يرى أن كتبه النقدية التي سبقت (النقد الثقافي) تمثل إجراءات نقدية ممهدة لكتابة النقدي المخصوص بمسمى النقد الثقافي.

إلاَّ إننا مع ذلك نجد غياباً واضحاً للمنجز الروائي مثلاً الذي يمثل أحد فروع النقد النصوصي والثقافي في الوقت ذاته، وكذلك القصصي والمسرحي والسيري وغيرها من الأجناس الأدبية المعروفة، وربما يستجيب لفعاليات النقد الثقافي وصلته بالثقافة المجتمعية أكثر من الشعر.

يرى الغذامي في كتابه (النقد الثقافي) أن النص الأدبي يشتمل على نسقين أساسين: ظاهر ومضمر، والنسق المضمر يمثل النص الأصيل في دائرة عمل النقد الثقافي والأهم في نظر الغذامي، ولولا هذا النسق لما أُنتج النسق الظاهر، وعلى أساسه يمكن تحديد أهمية ذلك النص ثقافياً، فوظيفته إذاً هي البحث عن هذا النص المضمر والمتمثل بالنسق الثقافي والكشف عنه وتشغيله نقديا، والنظر فيه، والاحتكام إليه، فهو ((الفاعل والمحرك الخفي الذي يتحكم في علاقاتنا مع أفعال التعبير وحالات التفاعل كافة، وبالتالي فأنه يدير أفعالنا ذاتها ويوجه سلوكياتنا العقلية والذوقية))[1].

وهذا أيضاً أوجد مؤلفاً آخر إلى جانب المؤلف الحقيقي للنص وهو ما أطلق عليه بـ (المؤلف المزدوج) الذي يحيله إلى الثقافة نفسها، ومن هنا تجب ((ضرورة التفريق بين المؤلف الذي أنتج النص مباشرة، أي المؤلف الذي ينسب إليه النص، وهو المؤلف المعهود، ومؤلف آخر يسميه (المؤلف المضمر) الذي هو الثقافة ذاتها التي ينتسب إليها النص))[2].

يمثل النقد الثقافي ـ بحسب مايرى الغذامي ـ بديلاً عن النقد الأدبي الذي وصل عنده إلى طريق مسدود ولم يعد لديه ما يقدّمه، وقد حاول تحديد العمل النقدي في مجموعة من الأسس الجمالية، التي سببت لنا ـ بحسب مايقول ـ العمى الثقافي[3]، على الرغم من تحديده لمجموعة من الأسس التي تمثل الإجراء النقدي (للنقد الثقافي)، والمتمثلة بالنسق المضمر والمستهلك الثقافي.

وهذا أيضاً أسقط كثيراً من النصوص التي تفقد شروطاً ثقافية حددها الغذامي ووضع لها أسساً، متجاوزاً في ذلك طبيعة هذا المنهج الذي هو ((بمثابة أفق حوار، لا أفق سلطة، أو بمثابة زاوية للرؤية، طريقة للتفكير والنظر إلى الأشياء، وليس هو

---

(2) م. ن: 69.

(1) الغذامي ناقداً (قراءات في مشروع الغذامي النقدي)، تحرير وتقديم د. عبد الرحمن بن إسماعيل السماعيل، كتاب الرياض 97ـ 98 ' مؤسسة اليمامة الصحفية ـ الرياض، 2002: 159.

(2) ينظر:عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، حسن السماهيجي وآخرون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ـ لبنان، ط1 2003: 39.

رؤيـة جـاهزة للعـالم، إنـه لـيس عقيـدة، لـيس حـداً، بـل هـو وسـيلة أو طريقـة لتفكيـك الحدود)) [1].

وعلى الرغم من تقديم مشروع النقد الثقافي بديلاً للنقد الأدبي عند الغذامي على هذا النحو الحاسم، إلاَّ أننا نجده عبر مقاربته الثقافية وفي أحيان كثيرة يعتمد أسس النقد الأدبي من خلال إضافة عنصر النسق إليها في مقابل كل عنصر من تلك العناصر الستة بقوله: ((غير أن ما نجده ضرورياً في مبحث النقد الثقافي هو إضافة عنصر سابع، هو ما أسميناه بالعنصر النسقي، ولهذا العنصر وظيفة لا توفرها أي من العناصر الستة الأصلية، إذ به تكشف البعد النسقي في الخطاب وفي الرسالة اللغوية)) [2].

ففي حديثه عن التورية بالمعنى الجمالي نجد هناك تورية أخرى بالمعنى الثقافي، وفي مقابل الجملة النحوية وموقعها في النقد الأدبي، نجد هناك الجملة الثقافية وهي مكملة للجملة الأدبية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الترابط الوثيق بين المنهجين.

وهذا هو جوهر ما أكده الغذامي فيما بعد، إذ يرى أن ((النقد الثقافي لن يكون إلغاء منهجياً للنقد الأدبي، بل إنه سيعتمد اعتماداً جوهرياً على المنجز المنهجي الإجرائي للنقد الأدبي)) [3]، فالنقد الثقافي إذن لا يسعى إلى إلغاء النقد الأدبي فحسب، بل يحاول في السياق نفسه توسيع دائرة النقد الأدبي في النقد الثقافي، وذلك من خلال نقلها من الفضاء النصي إلى الفضاء الثقافي، إذ ((إن كل حركة أو فعل أو ممارسة أو هيئة أو مؤسسة أو تقليد أو عرف، كل ذلك يمكن قراءته بوصفه نصاً ثقافياً)) [4].

يبدو أن حديث الغذامي عن موت النقد الأدبي يمثل حمى (الميتات) التي أصابت العملية النقدية في أكثر من مجال، التي تجد في أن حضور منهج جديد ما لا يتم إلا عن طريق محو المنهج الذي سبقه، فهو حين ((يهاجم النقد الأدبي ومقولاته المنهمكة بالجماليات إنما يهاجمه بعد أن اكتشف أن هناك نقداً ثقافياً، وهو لا يريد أن يقنع بتحول نقده من ناقد أدبي إلى ناقد ثقافي، بل يندفع إندفاعة فحولية ليطالب النقد

---

(3) اتجاهات الخطاب النقدي عند العرب وأزمة التجريب، د. عبد الواسع الحميري، دار الزمان، سورية ـ دمشق، ط1 2008: 181 0

(2) نقد ثقافي أم نقد أدبي، د عبد الله الغذامي، د. عبد النبي اصطيف، دار الفكر، سوريا - دمشق، ط1 2004: 26 0

(3) م. ن:21

(4) الهوية والسرد، دراسات في النظرية والنقد الثقافي، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط1 2006: 33.

الأدبي العربي بوجوب تحوله الآن وآنذاك، في عصور نقدنا القديم، إلى نقد ثقافي)) [1].

ونحن لا نجد هناك تقاطعاً واضحاً وحاسماً وكبيراً بين المشروعين (الأدبي/الثقافي)، بل إن كلاً منهما يكمل الآخر، إذ يسهم النقد الثقافي ((إسهاما فاعلاً في ضبط إيقاع النقد الأدبي ومنعه من السقوط في الرجعية والتخلف، وحثه على المضي قدماً في سبيل مشروعه النقدي الحضاري والجمالي لتعزيز ذوقه الأدبي ودعمه، في سبيل حيوي أوسع وأعمق يخصب آليات الفهم والتحليل والتفسير والتأويل)) [2]، فضلا عن كونه يمثل دعوة للانفتاح على جميع العلوم الأخرى، من أجل تطوير آلياته النقدية وكسر جميع الحواجز التي تفصل بين مجالات المعرفة المختلفة.

ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من وجود خصوصية فكرية ومنهجية وفلسفية لكلا المنهجين، فـ ((خصوصية النقد الأدبي تكمن في قراءته (النص) في حين تكمن خصوصية النقد الثقافي في قراءته (النسق)، والدعوة الحاصلة في الانتقال من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي هي دعوة للانتقال من تحليل النص إلى تحليل نسقه ثم بيان وظيفته)) [3].

وهذا ايضاً يؤكد قوة التواصل فيما بينهما، إذ إن ((العمل الأدبي اليوم هو ثمرة ثقافية خصبة للمعايشة العميقة والجوهرية لقضايا الإنسان وتجاربه الجمالية... على النحو الذي فيه الثقافي في النصي والنصي في الثقافي)) [4]، من هنا لا يمكن وبأي حال من الأحوال أن نعلن موت النقد الأدبي كما دعا الغذامي، لأنه كان وما يزال يمثل حقلاً من حقول الإبداع المركزية.

ولا توجد بهذا الخصوص مشكلة خطرة في أن يحضر النقد الثقافي بوصفه ((دائرة لها وجودها، ولكن يعرف أصحاب النقد الثقافي ما في المسألة من جماليات، وكذلك لابد وأن يفهم الناقد الأدبي إن النص ما هو إلا انعكاس لظاهرة ثقافية....، فالمسألة في النهاية هي دعوة إلى الثراء المشترك بين الدائرتين، وليس محو إحداهما للأخرى)) [5].

---

(1) عضوية الأداة الشعرية (فنية لوسائل ودلالية الوظائف في القصيدة الجديدة)، ا.د محمد صابر عبيد، : 15.

(2) آفاق النظرية الأدبية المعاصرة بنيوية أم بنيويات ؟، تحرير وتقديم: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 2007: 107.

(3) أنسنة النص مسارات معرفية معاصرة، د. محمد سالم سعد الله، جدارا للكتاب لعالمي، عمان - الأردن، ط1 2007: 54.

(4) عضوية الأداة الشعرية: 9

(5) النقد الثقافي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع63، شتاء - ربيع 2004: 118.

فالمشكلة إذاً تكمن في نوع الرؤية لكل منهما وكيفية تطبيق إجراءاتها النقدية في الميدان النصّي، وهذا هو موضوع الفكر الأدبي منذ القدم إلى الآن [1] ، ولا يمكن أن ينتهي لأنه جدل منتج على الدوام.

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن النقد الثقافي يمثل ظاهرة حضارية ـ ثقافية بالغة الأهمية والخطورة، وهو منهج نصي (المقروء وغير المقروء) بما تمثله النصية من ظاهرة ثقافية.

يمثل مشروع الشاعر الناقد عز الدين المناصرة، حلقة مهمة من حلقات تطوير منهج النقد الثقافي وتفعيله وفتحه على آفاق منهجية ثرية وخصبة، وذلك من خلال الانتقال بالأدب المقارن ـ ميدان عمله الأكاديمي والنقدي ـ من التحديدات المنهجية الضيقة إلى فضاء المنهج الثقافي الشامل والواسع، الذي لا يجد في تشابه اللغات والثقافات والعصور الوسيلة الوحيدة لعقد المقارنة بين أدبين مختلفين، بل يجد أن الثقافة أوسع من ذلك ولا يمكن أن تتحدد بقواعد معينة إذا ما أخذنا ببعدها الحضاري.

ومن مبدأ التأثر والتأثير في الظاهرة النقدية بشكل خاص، فإن ((النقد الثقافي المقارن في بعده الحضاري يعتبر الكون الرحب ميداناً له، يقيم فيه حوار الثقافات والحضارات والفنون والآداب... ويبحث في الأصول والتطورات التي طرأت على أنماط التفكير بفعل عاملي التأثر والتأثير)) [2]، وينتهي إلى فتح مجالات نقدية جديدة تخصّب الظاهرة النصية وتجيب عن أسئلتها.

إن النقد الثقافي هنا يُخرج النص من حدوده المحلية والقومية الضيقة إلى العالمية، من خلال اعتماد مبدأ التأثر والتأثير، ولاسيما في مجال النقد الثقافي المقارن، فضلاً عن الأنشطة الثقافية المتنوعة والمتعددة الأخرى التي بدأت تدخل إلى جميع المرافق الثقافية ومن دون تقييد، ((وعلى هذا الأساس، فإن تطبيق المنهج المقارن، يقتضي منا تجنب المقارنات السطحية، والتعرض لجوانب أكثر عمقاً لتفحص وكشف طبيعة الواقع الثقافي، من خلال عقد المقارنات الجادة والعميقة بين شتى الثقافات،وكثيراً ما يستخدم أصحاب الاتجاه الثقافي مختلف المصطلحات الفنية، مثل السمات الثقافية، والمركبات الثقافية، والأنساق الثقافية، والدائرة الثقافية، وذلك للتوصل إلى تحقيق دراسة أدق في ميدان المقارنة والتطبيق))[3].

لا تتوقف معالجات عز الدين المناصرة لنظرية النقد الثقافي عند حدود النص القومي، بل تخرج إلى حقل جديد أكثر أهمية هو حقل النقد الثقافي المقارن، إذ تلتقي الثقافات وتتبادل رؤياتها ونصوصها وفضاءاتها على نحو إنساني شامل

---

(1) ينظر: الغذامي ناقداً: 180.
(2) مدخل في نظرية النقد المقارن، أ.د حفناوي بعلي: 214.
(1) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن: 365.

وحيوي، يضع المنهج بوصفه آلية تحقيق القوة الحضارية والجمالية والثقافية للإنسان في كل زمان ومكان ومناسبة.

يستخدم المناصرة هذه المنطلقات النظرية ويستدعي كثيراً من مقولاتها في سبيل تكريس رؤيته النظرية، التي يجعل منها منطلقاً لمناقشة ومحاورة التعريف والمفهوم والمصطلح والنظرية عموماً، بحيث وفّر لرؤيته في تكوين مجال منهجي نقدي خاص به تميز بالكثير من الموضوعية والعلمية، على الرغم من أنه كان يشتغل في كل مقارباته على تأكيد رؤيته الخاصة التي يسخّرها لخدمة عمله النقدي، الذي يكشف عن مشروعه في الحقل النقدي الثقافي.

ويرى المناصرة إنّ عملية البحث في تاريخية النقد الثقافي تعود إلى العقود الأولى من القرن العشرين، حيث تجلّى الصراع الفكري وتمخّض عن صراع منهجي في مقاربة النصوص والظواهر والأجناس والأشكال الأدبية والثقافية، إذ ((كانت الثلاثينات من القرن العشرين، ميداناً للصراع النقدي بين اتجاهين:أحدهما، ينظر الى النص بوصفه منتجاً ثقافياً يتم إنتاجه في إطار سياق تاريخي، وبالتالي،فهو يمتلك معرفة نصيّة لا تنفصل عن هذا السياق، كذلك يتمدّد النصّ إلى الخارج نحو ـ مدى استجابة القارئ الذي يقرر صلاحية النص أو عدمها في أزمان مختلفة. أما الاتجاه الآخر فهو يرى أن النصّ كتلة جمالية مركّبة، منفصلة عن الخارج، شبه مستقلّة، منغلقة على ذاتها)) [1].

وبهذا يكون الصراع قد تقرر تاريخياً منذ ذلك الوقت بين رؤيتين منهجيتين مختلفتين، ترصدان النصوص والظواهر انطلاقاً من خلفياتهما الفكرية والإيديولوجية، فأفرزت على أساس هذه المعادلة ما سمّي بـ (الخارج النصي) و(الداخل النصي)، إذ ينتمي (الخارج النصي) إلى اتجاهات النقد الثقافي، وينتمي (الداخل النصي) إلى اتجاهات النقد الأدبي النصّي، وكل اتجاه يذهب في ممارسته النقدية بعيداً عن الاتجاه الآخر.

اشتغل عز الدين المناصرة في نشاطه النقدي النظري لتحديد المفاهيم على مساحة النقد الثقافي انطلاقاً من تحديد تاريخي لظهور هذا النقد عربياً، بعد ظهوره غربياً بطبيعة الحال على يد كوكبة من النقاد المنتشرين على مساحة أوربا، ومن خلال تحديد طبيعة مفهوم هذا النقد ومجاله، ومدى انطباق هذا المفهوم على جهود نقدية عربية برزت منذ مطلع القرن العشرين، على الرغم من أن المفهوم الواسع لهذا النقد قد يعود بنا إلى مرجعيات نقدية في عصور قديمة لدى المشتغلين في حقول معرفية ثقافية عامة.

---

(1) علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)، عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، 2007: 369.

فإذا كان النقد الثقافي ينطوي على رؤية موسوعية في مباشرة النص الأدبي والثقافي عموماً، و ((إذا كان النقد الثقافي هو الأخذ من كل علم بطرف، حسب ابن خلدون، فقد مارس العرب القدامى، النقد الثقافي، بمفهوم الموسوعية، لكن مفهوم النقد الثقافي، بمرجعياته الأوربية، مورس في العصر الحديث أيضاً، فلا أحد يستطيع أن ينفي إن كتاب طه حسين (مستقبل الثقافة في مصر 1938) يقع في دائرة النقد الثقافي بامتياز، كذلك بعض كتب المثقفين العرب من مختلف الاتجاهات كافة)) [1].

إذ ينظر المناصرة إلى هذه القضية الإشكالية من خلال نظرة موسّعة وشاملة قاربت كثيراً من المدوّنات النقدية العربية لدى عدد مهم ومتميّز من أبرز المفكرين التنويريين العرب، الذين انطوت أراؤهم الفكرية النهضوية على رؤى ثقافية ناضجة في هذا السياق.

فقد وجد المناصرة ضمن أفق هذه الرؤية واستناداً إلى معطياتها أن ((هؤلاء جميعاً مارسوا النقد الثقافي من منطلقات متعددة، القومي التقليدي، القومي الليبرالي، التحرر الوطني، الإسلامي التقليدي والإسلامي المتنوّر، المادي الجدلي واليساري العام، واليساري الماركسي، الليبرالي العام، العلماني، التفكير الأنثربولوجي، الليبرالي التابع.... إلخ. ولكن لا بدّ من إشارة خاصة إلى مالك بن نبي، مؤلف كتاب (مشكلة الثقافة 1959)، باعتباره ثالث كتاب مباشر في النقد الثقافي بعد كتاب طه حسين عام 1938، وبعد كتاب عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم (في الثقافة المصرية 1956)، ونشير إلى كتاب الجزائري مصطفى الأشرف: (الجزائر: أمةً ومجتمعاً 1983)، كذلك نشير إلى كتاب (النقد الثقافي 2000) لعبد الله الغذامي، الذي انطلق من مفهوم ـ النسق لدى جاكوبسن، فهو يندرج ضمن النقد البنيوي الثقافي، لكن الإشارة الأهم ينبغي أن تكون لإدوارد سعيد، الذي كان أول من حرّك الاهتمام باتجاه النقد الثقافي منذ كتابه (الاستشراق 1978)، و (العالم والنص والناقد 1983)، ولاحقاً (الثقافة والإمبريالية 1993) خصوصاً بعد ترجمتها إلى العربية)) [2].

يحيل عز الدين المناصرة في سبيل الإشارة إلى مرجعية عربية للنقد الثقافي على ثلاثة كتب أساسية، يعتقد أنها تمثل بداية ظهور النقد الثقافي في الثقافة النقدية العربية الحديثة، لكنه ينبّه في السياق ذاته إلى أنها تشتغل في مجال النقد الثقافي على نحو عام أو تتمحور حول هذا النقد، بوصفها ممارسة نقدية تشتغل على النص الثقافي (الوضع الثقافي السائد) وليس النص الأدبي وتأثيره على البنية الثقافية للواقع الثقافي الحاضن لهذا النص.

---

(1) الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004:8 - 9.

(2) الهويات والتعددية اللغوية:11.

إذ يشير المناصرة في تحديد نوع من الريادة في هذا النقد إلى أنّ ((هناك ثلاثة كتب: (مستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين، وهو صادر عام 1938، وهناك كتابان صدرا في الخمسينات هما: (مشكلة الثقافة) لمالك بن نبي، وكتاب (في الثقافة المصرية) لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، هذه الكتب تتمحور حول النقد الثقافي للنص الثقافي)) [1].

وعلى الرغم من أن ما تنطوي عليه هذه الكتب من ممارسة نقدية تنتمي على نحو ما إلى طبيعتها التنويرية النهضوية، في ظل آراء وأفكار وقيم عصر النهضة مطلع القرن العشرين، إلا إن بنية هذه الكتب ومشروعها النقدي في نظر المناصرة تقترب من آراء النقد الثقافي وأفكاره وقيمه بصورة أو أخرى، وتشكّل بداية حقيقية للتفكير الثقافي في الظواهر والنصوص الثقافية العربية التي كانت سائدة آنذاك.

وإذا كانت هذه الكتب الثلاثة تمثل على وفق المنظور التاريخي بداية ظهور التفكير النقدي الثقافي، فإن المناصرة يردفها بكتب أخرى مثّلت عنده الموجة الثانية من موجات ظهور كتب النقد الثقافي في الثقافة النقدية العربية، وهي كتب صرّحت بالمصطلح واشتغلت عليه وبشّرت به على نحو قصدي ومخطط له، وهي التي أثارت الجدل والسجال والحوار حول هذا النقد وحدوده ومظاهره من جهة، وصلته بالنقد الأدبي من جهة أخرى.

فهناك بحسب رصد المناصرة ((أيضاً خمسة كتب حديثة هي: النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية لعبد الله الغذامي، الصادر عام 2000، وكتب نقد ثقافي أم نقد أدبي لعبد الله الغذامي وعبد النبي اصطيف، الصادر عام 2004، كذلك كتاب النظرية والنقد الثقافي لمحسن جاسم الموسوي الصادر عام 2005، كذلك ظهر كتابا عبد العزيز حمودة (المرايا المقعّرة، والمرايا المحدّبة) الصادران عن منشورات سلسلة عالم المعرفة بالكويت، وهما في نقد الحداثة النقدية العربية)) [2].

وربما يكون كتاب عبد الله الغذامي ((النقد الثقافي)) أهم هذه الكتب وأخطرها في مجال التبشير بهذا النوع النقدي، وقد حفل الكتاب منذ عتبة عنوانه بالكثير من الآراء الفكرية الثقافية والمعالجات الإجرائية، التي وجدها الغذامي تمثل ـ على نحو ما ـ ولادة نقد جديد بديل للنقد الأدبي، وقد أولاه المناصرة الأهمية الكبرى قياساً بالكتب الأخرى المرافقة له.

ومن أجل توفير مناخ تاريخي واسع لحضور هذا النقد في الساحة النقدية العربية، ذهب المناصرة إلى إدراج كتب أخرى وجد أنها تنتمي على نحو أو آخر في

---

(1) علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، عزالدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر، عمان – الأردن، ط1، 2006:30.

(2) علم التناص المقارن: 30.

مدوّنة النقد الثقافي بقوله: ((كذلك تندرج كتابات فيصل دراج النقدية في إطار النقد الثقافي خصوصاً كتابيه: (نظرية الرواية العربية)، و (بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية)، وكتابات عمّار بلحسن خصوصاً كتابه (أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر)،)) [1]

لكنه لا يكتفي بإيراد سلسلة هذه الكتب التي رأى أنها تحيط بمقولات النقد الثقافي في الثقافة العربية، بل جمعها تقريباً داخل بؤرة وجهة نظره النقدية التي تقارب هذه الكتب بوصفها تشتغل على وجه واحد من وجوه هذا النقد، ((وبتقديري أن هذه الكتب غلبت عليها ميزة ـ النقد التعليقي على النصوص، أكثر من محاولة قراءة النص من الداخل. فاكتشاف ما هو مكتشف أمر يسير، لكن البرهنة عليه هو الأمر الصعب)) [2]

وبذلك يكون قد أوقف عملها النقدي عند حدود التعليق على النصوص وليس مباشرة النص من الداخل، بوصفه العمل الأول الذي تشتغل عليه الممارسة النقدية بكل ألوانها وأشكالها.

ويذهب المناصرة في سياق معالجة هذه الكتب والنظر فيها والتحاور معها انطلاقاً من حساب النظرية والتطبيق معاً، إلى أن ثمة ممارسات أخرى في علوم مجاورة كعلم الاجتماع مثلاً، تناولت ظواهر أدبية بآليات ثقافية اجتماعية لا يمكن معها استثناؤها من مجال النقد الثقافي، لأنها قاربت نصوصاً مهمة في الشعر العربي مقاربة سوسيولوجية، وتوصلت بالرغم من ذلك إلى نتائج قاربت نتائج النقد الأدبي والثقافي حول النصوص نفسها، على النحو الذي يمكن إدراجها في حقل النقد الثقافي.

إذ يورد المناصرة هذه القضية المهمة عبر هذه الالتفاتة بقوله: ((لقد اكتشف عالما اجتماع، هما صادق جلال العظم، والطاهر لبيب، مسالة عدم صدقية الرأي الشائع في المناهج المدرسية والجامعية حول عذرية الشعر العذري، بأدوات علم الاجتماع. فإذا كانا قد وصلا إلى نفس النتائج التي وصل إليها النقد الأدبي والثقافي بوسائل علم الاجتماع، فهل يمكن طردهما من جنّة النقد الثقافي!!، رغم أنهما قالا بالاختلاف قبل دريدا)) [3].

الأمر الذي يؤكّد سعة هذا النقد وشموليته وصعوبة حصره في مقولات محددة وأطر مغلقة ضمن اعتبارات ذات استقلالية خاصة، لأنه نقد متفتّح ورحب وشامل وذو اتصال وثيق بشبكة المعارف الإنسانية كافة، بحيث يتوجب على المشتغلين في حقله عدم القطع في إقامة حدود نهائية وحاسمة له.

---

(1) م. ن: 30.
(2) علم التناص المقارن: 30
(3) م. ن: 30- 31.

لكن المناصرة وهو يستعرض هذه الكتب التي يعتقد أنها تمثل تاريخ نشأة النقد الثقافي ـ بصورته الشاملة ـ عربياً، ينظر إلى كتاب الناقد عبد الله الغذامي (النقد الثقافي) على أنه أنضج هذه الكتب وأدقها أكثرها دقّة وحيوية وضبطاً وفهماً وإدراكاً في التعريف بهذا النقد والاشتغال عليه والسعي إلى ترويجه، فيقول في سياق وصفه لهذا الجهد المنهجي ((طبعاً يمتلك كتاب عبد الله الغذامي أطروحة قريبة من التماسك، رغم جزئيتها، لكنّ الغذامي رغم تعداده للأنساق ـ كما يقول عبد النبي اصطيف ـ لم يقدّم تعريفاً واحداً لمصطلح (النسق)، فالغذّامي يعرّف النسق على النحو التالي: (يجري استخدام كلمة النسق كثيراً في الخطاب العام والخاص، وتشيع في الكتابات إلى درجة تشوه دلالتها. وتبدأ بسيطة كأن تعني (ما كان على نظام واحد) كما يقول تعريف المعجم الوسيط، وقد تأتي مرادفة لمعنى (البنية) أو معنى (النظام ـ SYSTEM) حسب مصطلح (دي سوسير). ويأخذ الغذامي خطاطة جاكوبسن ليضيف إليها عنصر النسق، ثم يبدأ بالتطبيق، رغم أن عنصر النسق مضمر في خطاطة جاكوبسن نفسها. أما ـ الاختلاف فهو ليس أمراً معقّداً، لكنه يحتاج إلى برهنة، فالمشكلة تقع بالضبط في الثقافة السائدة المسيطرة التي تقمع الاختلاف)) [1].

مع أنه ـ وعلى الرغم من تقديمه على كل الجهود الأخرى المماثلة في هذا السبيل ـ يتحفظ على طبيعته المنهجية، بوصفه نقداً جزئياً يتناول النص الأدبي والثقافي من زاوية واحدة، ولا ينفتح على فضاء النص من جوانبه كافة بل يكتفي بما يخدم فكرته فقط.

وعلى صعيد مقاربة الجهاز المصطلحي والمفهومي الذي اشتغل عليه الغذامي في تشكيل أطروحته فإنه يرى مع عبد النبي اصطيف الذي تداخل مع الغذامي مفهومياً ومنهجياً في كتابهما المشترك، أن الغذامي لم يعرّف (النسق)، الذي هو أحد أهم المصطلحات المركزية التي اعتمد عليها في مقاربة نصوص الشعراء العرب المعاصرين الذين عدّهم (نسقيين)، وأشار إلى رجعيتهم الحداثية بدلالة هذا النسق، لكنه في النهاية لم يعطِ تعريفاً دقيقاً للنسق، وترك فهمه للقارئ من خلال الممارسة النقدية وإجراءاتها.

يقول المناصرة وهو يبسط هذه القضية لمحاورة مفهومية ومنهجية: ((كما أن عنصر النسق هو أحد العناصر وليس كلّها، والطريف أن اصطيف أيضاً لم يعرّف النسق!!، رغم انتقاده للغذامي، والمسالة الثانية هي مسألة الاختيار، حيث ربط الغذامي تبرير اختياره للنصوص بمسالة شهرة الشاعر، وهذه مسألة ناقصة، إذ على الغذامي أن يكمل هذا المبدأ بأسباب الشهرة، فهي التي تكشف، بل تكشف أيضاً النسق المكبوت في عقل الناقد نفسه، مع هذا، فإنه يحسب للغذامي أنه اختار منهجية

(1) علم التناص المقارن: 31

جاكوبسن، وأنه حاول التطبيق على نماذج عربية، وأن نتائجه رغم جزئيتها، صحيحة نسبياً)) [1].

وعالج المناصرة أخيراً كتاب محسن الموسوي ـ وقد أدرجه أولاً ضمن الكتب الأساسية المنشورة في هذا المجال ـ بوصفه كتاباً مقلّداً وحشداً لمجموعة من المقالات التي تفتقر إلى التجانس والتماسك وتقديم الجديد، بالمقارنة مع كتاب عبد الله الغذامي حيث يعدّه المناصرة الكتاب الأهم من ضمن هذه الكتب المعروضة، ((أما كتاب الموسوي فهو يقتفي آثار منهجية إدوارد سعيد، لكن الكتاب غير متماسك، وكأنه مجموعة مقالات، ثم جمعها كيفما اتفق، وتتناص هذه الكتابات العربية كثيراً مع كتابات: غرامشي، أدورنو، رايموند وليامز، سبيفاك، جوليان بيندا، فرانز فانون، هومي بابا، إدوارد سعيد، إيزابيرغر، ميشيل فوكو، ديريدا، مثيو أرنولد، تيري ايغلتون، فالتر بينيامين، بارت، ماشريه، مجموعة بيرمنغهام... وغيرهم)) [2].

وبهذا تكون تاريخية النقد الثقافي العربي قد انحصرت في كتب معينة ومحددة، ربما يكون المناصرة قد توسّع فيها وفتحها على نطاق أوسع مما يجب، حين أدخل كتباً قد لا تنتمي إلى ميدان النقد الثقافي بمفهومه النقدي الحرفي، لكن طروحاتها ومقولاتها تقارب قضايا ثقافية مهيمنة تخضع لنقد فكري وإيديولوجي، وجد المناصرة أن قيمتها الثقافية ضمن المفهوم العام والشامل للنقد الثقافي تتيح لها الاندراج في سياق هذا النقد.

---

(1) علم التناص المقارن: 31.

(2) م. ن:31.